خُبَيْبُ بْن عَدِىّ

بَطلٌ.. فوْقَ الصَّلِيب!!

والآن..

أفسحوا الطريق لهذا البطل يا رجال..

وتعالَوا من كل صَوْب، ومن كل مكان..

تعالوْا خِفافًا، وثِقالاً..

تعالَوْا مُسرعِين، وخاشعين..

وأقْبِلوا، لِتُلَقَّنوا فى الفداء درسًا ليس له نَظير..!!

تقولون: أوكُلُّ هذا الذى قصَصْتَ علينا من قبل لم تكن دروسًا فى الفداء ليس لها نظير..؟؟

أَجَلْ، كانت دروسًا..

وكانت فى روعتها تجلُّ عن المثيل وعن النظير..

ولكنكم الآن أمام أستاذ جديد فى فن التضحية..

أستاذ لو فاتكم مشهده، فقد فاتكم خير كثير، جدّ كثير..

إلينا يا أصحاب العقائد فى كل أمة وبلد..

إلينا يا عُشّاق السمُوِّ من كل عصر وأمَد..

وأنتم أيضًا يا مَنْ أثقلكم الغرور، وظننتم بالأديان وبالإيمان ظَنَّ السَّوْء..

تعالوا بغروركم..!

تعالوا وانظروا أَيَّة عِزَّة.. وأية مَنَعَة.. وأى ثبات وأىَّ مضاء.. وأىَّ فداء.. وأىَّ ولاء..

وبكلمة واحدة، أية عظمة خارقة وباهرة يُفيئها الإيمان بالحق على ذويه المخلصين..!!

أترون هذا الجثمان المصلوب..؟؟

إنه موضوع درسنا اليوم - يا كلَّ بنى الإنسان...!

أجل...

هذا الجثمان المصلوب أمامكم هو الموضوع، وهو الدرس، وهو الأستاذ..

اسمه «خُبَيْبُ بن عَدِىّ».

احفظوا جيدًا هذا الاسم الجليل.

احفظوه، وانشدوه، فإنه شرفٌ لكل إنسان.. من كل دين، ومن كل مذهب.. من كل جنس، وفى كل زمان.. !!

❋ ❋ ❋

إنه من أَوْسِ المدينة وأنصارها.

تردَّدَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنْذُ هاجر إليهم، وآمن بالله رب العالمين.

كان عَذْب الروح، شفّاف النفس، وثيق الإيمان، ريَّان الضمير.

كان كما وصفه «حَسَّان بن ثابت» شاعر الإسلام:

صَقْرًا توسَّط فى الأنصار منصبُه   سَمْحُ السَّجِيَّة مَحْضًا غير مُؤْتَشَب

ولما رفعت «غزوة بدر» أعلامها، كان هناك جنديا باسلا، ومقاتلا مقدامًا.

وكان من بين المشركين الذين وقعوا فى طريقه إبَّان المعركة فصرعهم بسيفه «الحارث بن عامر بن نوفل».

وبعد انتهاء المعركة، وعودة البقايا المهزومة من قريش إلى مكة عرف بنو الحارث مصرع أبيهم، وحفظوا جيدًا اسم المسلم الذى صرعه فى المعركة: خبيب بن عَدِىّ..!!

* * *

وعاد المسلمون من «بدر» إلى المدينة، يُثَابرون على بناء مجتمعهم الجديد..

وكان «خُبيب» عابدًا، وناسكًا، يحمل بين جنبيه طبيعة الناسكين، وشوق العابدين..

هناك أقبل على العبادة بروح عاشق.. يقوم الليل، ويصوم النهار، ويُقَدِّس لله رب العالمين.

* * *

وذات يومٍ أراد الرسول صلوات الله عليه أن يَبْلُو سرائر قريش، ويتبينَ ما ترامى إليه من تحركاتها، واستعدادها لغزو جديد.. فاختار من أصحابه عشرة رجال... من بينهم «خبيب» وجعل أميرهم «عاصم بن ثابت».

وانطلق الرَّكبُ إلى غايته حتى إذا بلغوا مكانًا بين عسفان ومكة، نمى خبرهم إلى حيّ من «هُذَيل» يقال لهم «بنو حيان» فسارعوا إليهم بمائة رجل من أمهر رُماتهم، وراحوا يتعقبونهم، ويقتفون آثارهم.

وكادوا يزيغون عنهم، لولا أن أبصر أحدهم بعض نوى التمر ساقطًا على الرمال.. فتناول بعض هذا النوى وتأمله بما كان للعرب من فِرَاسة عجيبة، ثم صاح فى الذين معه:

«إنه نَوَى يثرب، فلنتبعه حتى يدلنا عليهم»..

وساروا مع النَّوَى المبثوث على الأرض، حتى أبصروا على البعد ضالتهم التى ينشدون..

وأحسَّ «عاصم» أمير العشرة أنهم يُطارَدون، فدعا أصحابه إلى صعود قمة عالية على رأس جبل...

واقترب الرُّماة المائة، وأحاطوا بهم عند سفح الجبل، وأحكموا حولهم الحصار..

ودعوهم لتسليم أنفسهم بعد أن أعطوهم مَوْثقًا ألَّا يناالهم منهم سوء.

والتفت العشرة إلى أميرهم «عاصم بن ثابت الأنصارى»

رضى الله عنهم أجمعين.

وانتظروا بمَ يأمر..

فإذا هو يقول:

«أما أنا، فوالله لا أنزل فى ذِمَّة مشرك..
اللهمَّ أخبر عنا نبيَّك»...

وشرع الرماة المائة يرمونهم بالنبال.. فأصيب أميرهم «عاصم» واستشهد، وأُصيب معه سبعة واستشهدوا..

ونادوا الباقين، أنَّ لهم العهد والميثاق إذا هم نزلوا.

فنزل الثلاثة: خبيب بن عدى وصاحباه..

واقترب الرُّماة من خبيب وصاحبه «زيد بن الدَّثِنَّة» فأطلقوا قِسِيَّهم، وربطوهما بها..

ورأى زميلهم الثالث بداية الغدر، فقرر أن يموت حيث مات عاصم وإخوانه..

واستشهد حيث أراد..

وهكذا قضى ثمانية من أعظم المؤمنين إيمانًا، وأبرهم عهدًا، وأوفاهم لله وللرسول ذمة..!!

وحاول «خبيب» و«زيد» أن يَخْلُصَا من وثاقهما، ولكنه كان شديد الإحكام..

وقادهما الرُّماة البغاة إلى مكة، حيث باعوهما لمشركيها..

ودوَّى فى الآذان اسم «خبيب»..

وتذكَّر بنو الحارث بن عامر قتيل بدر، تذكروا ذلك الاسم جيدًا، وحرَّك فى صدورهم الأحقاد.

وسارعوا إلى شرائه.. ونافسهم على ذلك بغية الانتقام منه أكثر أهل مكة ممن فقدوا فى معركة «بدر» آباءهم وزعماءهم.

وأخيرًا تواصوا عليه جميعًا وأخذوا يعدُّونه لمصير يشفى أحقادهم، ليس منه وحده، بل ومن جميع المسلمين..!!

ووضع قوم آخرون أيديهم على صاحب خبيب «زيد بن الدَّثِنَّة» وراحوا يُصْلُونه هو الآخر عذابًا..

❊ ❊ ❊

أسلم خبيب قلبَه، وأمره، ومصيره لله رب العالمين.

وأقبل على نُسُكه ثابت النفس، رابط الجأش، معه من سكينة الله التى أفاءها عليه ما يذيب الصخر، ويُلاشى الهول.

كان الله معه.. وكان هو مع الله..

كانت يد الله عليه، يكاد يجد بَرْدَ أناملِها فى صدره..!

دخلت عليه يومًا إحدى بنات «الحارث» الذى كان أسيرًا فى داره، فغادرت مكانه مسرعة إلى الناس تناديهم لكى يبصروا عجبًا..

«والله لقد رأيته يحمل قطفًا كبيرًا من عنب يأكل منه... وإنه لموثق فى الحديد... وما بمكة كلها ثمرة عنب واحدة..

«ما أظنه إلا رزقًا رزقه الله خُبيبًا»...!!

أَجَلْ.. إنه رزق آتاه الله عبده الصالح، كما آتى مثله من قبل مريم بنت عمران، يوم كانت:

﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا..

قال: يا مريم أنَّى لك هذا..؟؟

قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾...!!

* * *

وحمل المشركون إلى «خُبيب» نبأ مصرع زميله وأخيه «زيد بن الدِّثِنَّة» رضى الله عنه.

ظانين أنهم بهذا يسحقون أعصابه، ويذيقونه ضِعْف الممات، وما كانوا يعلمون أن الله الرحيم قد استضافه، وأنزل عليه سكينته ورحمته.

وراحوا يُسَاومونه على إيمانه، ويلوحون له بالنجاة إذا هو كفر بمحمد، ومن قبلُ بربه الذى آمن به.. لكنهم كانوا كمن يحاول اقتناص الشمس برمْيَة نَبْل.. !!

أجلْ، كان إيمان «خُبَيب» كالشمس قوة، وبعدًا، ونارًا، ونورًا...

كان يضىء كل من التمس منه الضوء، ويُدْفئ كل من إلتمس منهُ الدفء، أما الذى يقترب منه ويتحدَّاه فإنه يحرقه ويسحقه.

وإذ يئسوا مما يرجون، قادوا البطل إلى مصيره.. وخرجوا به إلى مكان يسمى «التنعيم» حيث يكون هناك مصرعه..

وما إن بلغوه حتى استأذنهم «خبيب» فى أن يصلى ركعتين، وأذنوا له ظانين أنه قد يجرى مع نفسه حديثًا ينتهى باستسلامه وإعلان الكفران بالله وبرسوله وبدينه..

وصلى خبيب ركعتين فى خشوع، وسلام، وإخبات..

وتدفقت فى روحه حلاوةُ الإيمان، فودّ لو ظل يصلى، ويصلى ويصلى..

لكنه الْتفت صوب قاتليه وقال لهم:

«والله، لولا أن تحسبوا أن بي جزَعًا من الموت، لازددتُ صلاة».. !!

ثم شهر ذراعيه نحو السماء وقال:

«اللهم أحصِهم عددًا.. واقْتُلْهم بدَدًا»..

ثم تصفَّح وجوههم فى عزم وراح ينشد:

ولسْتُ أبالى حين أقتلُ مسلمًا على أى جَنب كان فى الله مَصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يَشأ يُبارك على أوصال شِلْوٍ ممزَّعِ

* * *

ولعلَّه لأول مرة فى تاريخ العرب يصلبون رجلا ثم يقتلونه فوق الصليب..

لقد أعَدُّوا من جذوع النخل صليبًا كبيرًا أثبتوا فوقه خُبيبًا.. وشدوا فوق أطرافه وثاقه.. واحتشد المشركون فى شماتة ظاهرة..

ووقف الرُّماة يشحذون رماحهم.

وجرت هذه الوحشية كلها فى بطء مقصود أمام البطل المصلوب.. !!

لم يُغمض عينيه، ولم تزايل السّكينة العجيبة المضيئة وجهه.

وبدأت الرماح تنوشُه، والسيوف تنهش لحمه.

وهنا اقترب منه أحد زعماء قريش، وقال له:

«أتحِبُّ أن محمدًا مكانك، وأنت سليم مُعافىً فى أهلك».. ؟؟

وهنا لا غير، انتفض «خُبيب» كالإعصار، وصاح فى قاتليه:

«والله ما أحِبُّ أنى فى أهلى وولدى، معى عافية الدنيا ونعيمها، ويُصاب رسول الله بشوْكَة»..

نفس الكلمات العظيمة الشاهقة التى قالها صاحبه «زيد ابن الدِّثِنَّة» وهم يهمون بقتله.. !! نفس الكلمات الباهرة الرائعة الصادعة التى قالها «زيد» بالأمس.. ويقولها «خبيب» اليوم.. مما جعل أبا سفيان، وكان لم يُسلم بعد، يضرب كفًّا بكف ويقول مشدوهًا: «والله ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كما يُحب أصحاب محمدٍ محمدًا»... !!

كانت كلمات «خُبيب» هذه إيذانًا للرماح وللسيوف بأن تبلغ من جسد البطل غايتها، فتناوَشَتْه في جنون ووحشية..

وقريبًا من المشهد كانت تُحوِّم طيور وصُقور. كأنها تنتظر فراغ الجزارين وانصرافهم حتى تقترب هي فتنال من الجثمان الغَضّ وَجْبَة شهية..

ولكنها سُرعان ما تنادت وتجمَّعت، وتدانت مناقيرها كأنها تتهامَس وتتبادل الحديث والنَّجْوى.

وفجأة طارت تشق الفضاء، وتمضي بعيدًا.. بعيدًا.. بعيدًا..

لكأنها شمَّت بحاسَّتها وبغريزتها عبير رجل صالح أوَّاب يفوح من الجثمان المصلوب؛ فخجَلت أن تقترب منه أو تناله بسوء.. !!

مضت جماعة الطير إلى رحاب الفضاء مُتعففة مُنصِفة.

وعادت جماعة المشركين إلى أوكارها الحاقدة في مكة باغية عادية..

وبقي الجثمان الشهيد تحرسه فرقة من القرشيين حملة الرماح والسيوف.. !!

كان «خُبيب» عندما رفعوه إلى جذوع النخل التي صنعوا منها

صليبًا، وعندما شدُّوا عليه الوَثاق كان آئنذ، قد يَمَّم وجهه شطر السماء وابتهل إلى ربه العظيم قائلا:

«اللهم إنا قد بلَّغنا رسالة رسولك فبلِّغه الغَدَاةَ ما يُصنَع بنا»..

واستجاب الله دعاءه..

فبينما الرسول فى المدينة إذ غمره إحساس وثيق بأن أصحابه فى محنة.. وتراءى له جثمان أحدهم مُعلقًا..

ومن فَورِه دعا - عليه السلام - المقداد بن عمرو، والزبير ابن العوام.. فركبا فرسيهما، ومضيا يقطعان الأرض وَثْبًا.

وجمعهما الله بالمكان المنشود، وأنزلا جثمان صاحبهما «خُبَيْب»، حيث كانت بقعة طاهرة من الأرض فى انتظاره لتضُمَّه تحت ثَراها الرطيب.

* * *

ولا يعرف أحد - حتى اليوم - أين قبر خُبَيْب.

ولعلَّ ذلك أحرى به وأجدر، حتى يظلَّ مكانهُ فى ذاكرة التاريخ، وفى ضمير الحياة، بطلا.. فوق الصليب..!!